درس 90
بداية الدعوة

الدعوة إلى الإسلام سرا

على إثر عودة الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد فترته، قام عليه الصلاة والسلام بأمر الدعوة إلى ما أمره الله تعالى به من إرشاد الثَّقَلَيْن: الإنس والجن جميعا إلى توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة دون سواه من الأصنام والمخلوقات، وأرشد الله تعالى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى أن يبدأ بالدعوة سِراً؛ فكان يدعو إلى الإسلام من يطمئن إليه ويثق به من أهله وعشيرته الأقْرَبين ومَنْ يَليهم من قومه، واستمر على ذلك ثلاث سنين مثابراً على الدعوة إلى الله تعالى خِفْيَة، حتى آمن به أفراد قلائل كانوا يقيمون صلاتهم ويؤدون ما أمروا به من شعائر الدين، مُسْتَخْفين عمن سواهم لا يظهرون بذلك في مَجامِع قريش؛ بل كان الواحد منهم يختفي بعبادته عن أهله وولده.

ولما بلغ عددهم نحو الثلاثين، وكان من اللازم اجتماعهم بالنبي صلى الله عليه وسلم لإرشادهم وتعليمهم، اختار لهم عليه الصلاة والسلام داراً فسيحة لأحدهم، وهي دار الأرْقَم بن الأرْقَم، فكانوا يجتمعون فيها، واستمروا على ذلك يزيد عددهم قليلا قليلا حتى أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالجهر بالدعوة.

الباعث على الإسرار بالدعوة

في أول ما نزل الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم- في أواخر شهر رمضان من السنة المتممة للأربعين من عمره الشريف بغار حِراء الذي كان يتعبد فيه- لم يؤمر آنذاك بتبليغ الرسالة للناس، بل كان الأمر في ذلك قاصرا على إبلاغه رسالة ربه إليه، وتمجيده جَلَّ وعَلا بما جاء في سورة (اقرأ باسم ربك)، وبعد أن فتر الوحي مدة عاد بأمر الله تعالى له بأن يقوم بتبليغ رسالة ربه.

ولما كان أهل مكة الذين بُعِثَ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قَوْماً جُفاة متخلقين بأخلاقٍ تغلب عليها العِزَّة والأَنَفَة، وفيهم سَدَنَةُ الكعبة، أي خَدَمُها وهم القابضون على مفاتيحها، والقُوَّام على الأوثان والأصنام، التي كانت مقدسة عند سائر العرب: يعبدونها ويتقربون إليها بالذبائح والهدايا، ولا يعرفون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا ينقادون إليه بسهولة، كان من حكمة الله تعالى تلقاء ذلك أن

تكون الدعوة إلى دين الإسلام في مبدأ أمرها سرية؛ لئلا يفاجئوا بما يهيجهم وينفرون منه ويكون سبباً لشنّ الغارات والحروب وإهْراق الدماء.

والداعي صلوات الله عليه وسلامه لم يكن له إذ ذاك ناصر ولا مُعين من خَلْق الله. ومن سنة الله تعالى في خَلْقِهِ ربط الأسباب بالمُسَبِّبات، فلم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالجهر بالدعوة من قبل أن يهيئ له أسباب النصر والفوز على من يقاومه في ذلك، خُصوصاً أن قومه الذين بُعِثَ فيما بينهم كانوا أشد الناس تمسكا بمعبوداتهم وحِرْصاً على ما كان عليه آباؤهم.

ومن المعلوم أن من الناس من هو عظيمٌ في قومه رفيعُ الدرجة فيما بينهم، ومنهم من هو دون ذلك، فالعظماء من الناس تمنعهم أَنَفَتُهُم من إجابةِ الداعي لهم إلى مفارقة ما عليه جماعتهم، ونَبْذِ ما بينهم من الروابط القومية والعادات المتأصلة، إذْ كُلُّ فَرْدٍ منهم يرى أنَّ انْفِرادَه بالرُّضوخ للغير يُنْقِصُهُ في نظر قومه. فإذا فوجئ هؤلاء الأعاظم بإعلان الدعوة إلى غير ما كانوا عليه؛ ظهروا بمظهر المُنْكِرِ المُعانِدِ وقاوموا الدعوة بجُمْلَتِهم. وغيرُ الأعاظم هم تَبَعُ العظماء والرؤساء؛ فإذا دُعوا إلى مخالفة ما عليه أولئك العظماء جِهارا لم يَجْسُروا على إجابة الداعي متى لم يسبقهم إلى ذلك أفراد من العظماء.

فإعلان الدعوة يحتاج إلى مقدمة يستأنس بها الفريقان، وما ذلك إلا باجتذاب أفراد من هؤلاء وهؤلاء خِفْيَة؛ حتى إذا تكونت منهم جماعة وأعلنت بهم الدعوة؛ سَهُلَ على غيرهم أن يَنْبُذوا تقاليد قومهم، ويتبعوا ما يدعوهم إليه الداعي مما تنشرح له صدورهم ولا تأباه فطرتهم.

أول من أسلم

كان أول من سطع عليه نور الإسلام من مبدإ الدعوة إليه خديجة بنت خُوَيْلِد زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وأسبقية إسلام السيدة خديجة على الجميع تكاد تكون بالاتفاق، والمشهور أن سيدنا أبا بكر الصديق أسبق الرجال إسلاما، وأن عليَّ بن أبي طالب أول الصِّبْيان إسلاما، وأن زَيْدَ بن حارثة أول الموالي إسلاما.

ثم أسلم ابن عمه عليُّ بن أبي طالب وعمره إذ ذاك عشر سنين؛ وكان مقيما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إذا حضرت الصلاة خرج به النبي صلى الله عليه وسلم إلى شعاب مكة متخفيين فيصليان ويعودان كذلك، وقد اطلع عليهما أبو طالب وهما يصليان مرة، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به. قال: أيْ عَمِّ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم؛ بعثني الله به رسولاً إلى العِباد، وأنت يا عَمِّ أحَقُّ من بَذَلْتُ له النصيحة ودَعَوْتُهُ إلى الهُدَى، وأحق من أجابني وأعانني عليه. فقال أبو طالب: يا ابن

أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي. ولكنه مع ذلك أقر ولده عليًّا على اتباع هذا الدين ووعد النبيَّ صلى الله عليه وسلم بأن ينصرَه ويدفعَ عنه السُّوء.

وقد أسلم بعد ذلك زَيْدُ بن حارثة مَوْلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، الذي تبناه بعد أن أعتقه وزوجه أم أيمن حاضنته صلى الله عليه وسلم، وقد كانت من السابقين إلى الإسلام.

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان صَديقاً للنبيِّ صلى الله عليه وسلم قبل النبوة يعرف صِدْقَه، فعندما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق، وقال: بأبي أنت وأمي أهلُ الصِّدْق أنت، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في حقه: ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كَبْوَة غير أبي بكر. وكان رضي الله عنه عظيما في قومه يثقون برأيه، فدعا إلى الإسلام من توَسَّم فيهم الإجابة، فأجابه عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عَوْف، وسعد ابن أبي وَقَّاص، والزُّبَيْر بن العَوَّام، وطَلْحَة بن عُبَيْدِ الله، وأتى بهم إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فأسلموا. ثم أسلم أبو عُبَيْدَة عامِر بن الجَرَّاح، وعُبَيْدَة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زَيْد العَدَوِيّ (من بني عَدِيّ)، وأبو سَلَمَة المَخْزومِيّ (من بني مَخْزوم)، وخالد بن سعيد بن العاص، وعثمان بن مَظْعون وأخواه قُدامة وعُبَيْد الله، والأرْقَم بن الأرْقَم. وكل هؤلاء من بطون قريش.

ومن غيرهم صُهَيْب الرُّومِيّ، وعَمَّار بن ياسِر، وأبو ذَرٍّ الغِفارِيّ (من قبيلة غِفار)، وعبد الله بن مسعود وغيرهم.

وقد استمرت هذه الدعوة السرية ثلاث سنين، أسلم فيها جماعة لهم شأن في قريش وتبعهم غيرهم، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به الناس، فجاء وقت الجهر بالدعوة.

مبدأ الجهر بالدعوة

بعد أن مضى على الإسْرار بالدعوة ثلاث سنين كَثُرَ دخول الناس في دين الإسلام من أشراف القوم ومواليهم: رجالهم ونسائهم، وفشا ذِكْرُ الإسلام بمكة وتحدث به الناس، فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالجهر بالدعوة وأنزل عليه: **(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)** فبادر بامتثال أمر ربه؛ وأعلن لقومه الدعوة إلى دين الله تعالى؛ وصعد على الصَّفا ونادى بُطون قريش.

فلما اجتمعوا قال لهم: أرأيتم لو أخْبَرْتُكُم أن خَيْلاً بالوادي تريد أن تُغِيرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقِيّ. قالوا: نعم ما جربنا عليك كَذِباً، فقال: فإنِّي نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذاب شديد. فقام أبو لَهَب من بينهم وقال: تَباً لك ألِهذا جمعتنا، فأنزل الله تعالى في شأنه: **(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ* مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ* سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ* وَامْرَأَتُهُ**

حَمَّالَةَ الْحَطَبِ* فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ)، وقد كانت امرأةُ أبي لَهَب تمشي بالنميمة في نوادي النساء وتتقول الأكاذيب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتشعل بذلك نار الفتنة، ثم أنزل الله تعالى عليه: **(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)**، فجمع من بني عبد مَناف نحو الأربعين وقال لهم: ما أعلمُ إنساناً جاء قومه بأفضل مما جئتُكم به؛ قد جئتُكم بخَيْرَيِ الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، واللهِ لو كَذَبْتُ الناسَ جميعاً ما كَذَبْتُكم، ولو غَرَرْتُ الناس جميعا ما غَرَرْتُكم، والله الذي لا إله إلا هو إنِّي لَرَسولُ الله إليكم خاصِّة وإلى الناس كافَّة. والله لَتَموتُنَّ كما تنامون؛ ولَتُبْعَثُنَّ كما تستيقظون، ولَتُحاسَبُنَّ بما تعملون، ولَتُجْزَوْنَ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً. إنها لَجَنَّةٌ أبدا أو لَنارٌ أبدا. فتكلم القوم كلاما لينا، وقام أبو لهب وقال: شَدَّ ما سَحَرَكُم صاحِبُكُم، خُذوا على يَدَيْهِ قبل أن تجتمع عليه العرب. فمانعه في ذلك أبو طالب وتفرق الجمع.

تذمر قريش من تسفيههم وعيب آلهتهم

لما استمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في إعلان الدعوة إلى الله وتوحيده لم يجد من قومه في مبدإ الأمر مقاومة ولا أذى، غير أنهم كانوا ينكرون عليه فيما بينهم فيقولون إذا مر عليهم: "هذا ابن أبي كَبْشَة يُكَلَّمُ من السماء، هذا غلام عبد المطلب يُكَلَّمُ من السماء". ولا يزيدون على ذلك، وأبو كَبْشَة كُنْيَة لزوج حليمة السَّعْدِيَّة مُرْضِعَة النبي صلى الله عليه وسلم، وكما أن المرضعة بمنزلة الأم كذلك صاحب اللبن بمنزلة الأب. وكانوا يريدون بذلك تنقيص النبيِّ صلى الله عليه وسلم عنادا واستكباراً.

ولكن لما استتبع إعلان الدعوة عيب معبوداتهم الباطلة، وتسفيه عقول من يعبدونها، نفروا منه وأظهروا له العداوة غيرة على تلك الآلهة التي يعبدونها كما كان يعبدها آباؤهم، فذهب جماعةٌ منهم إلى عمه أبي طالب وطلبوا أن يمنعه عن عيب آلهتهم وتضليل آبائهم وتسفيه عقولهم أو يتنازل عن حمايته، فردهم أبو طالب رداً جميلا.

واستمر رسول الله عليه وسلم يَصْدَعُ بأمر الله تعالى، وينشرُ دعوته، ويُحَذِّرُ الناسَ من عبادة الأوثان، ولما لم يطيقوا الصبر على هذا الحال عادوا إلى أبي طالب وقالوا له: إنَّا قد طلبنا منك أن تَنْهَى ابن أخيك فلم ينته عنا، وإنَّا لا نصبر على هذا الحال من تسفيه عقولنا وعيب آلهتنا وتضليل آبائنا، فإما أن تَكُفَّه أو تُنازِلَه وإيَّاكَ في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، فعَظُمَ الأمر على أبي طالب، ولم تَرُقْ لديه عداوةُ قومه ولا خُذْلان ابن أخيه، وكلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: واللهِ يا عَمِّ لو وَضَعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أن

أترك هذا الأمرَ ما فعلتُ حتى يُظْهِرَهُ اللهُ أو أهْلَك دونه. فقال أبو طالب: اذهب فقلْ ما أحببت، فوالله لا أُسْلِمُكَ لشيءٍ أبدا.

ثم رأى أبو طالب أن يجمع بني هاشم وبني المطلب ليكونوا معه على حماية ابن أخيه؛ فأجابوه لذلك إلا أبا لَهَب فإنه فارقهم وانضم إلى بقية كفار قريش.

ولما رأت قريش تصميمَ أبي طالب على نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم واتفاقَ بني هاشم وبني المطلب معه في ذلك؛ وكان وقت الحج قد قَرُبَ وخافوا من تأثير دعوته في أنفُسِ العرب الوافدين لزيارة الكعبة فتزداد قوته وتنتشر دعوته؛ اجتمعوا وتداولوا فيما يصنعون في مقاومة ذلك، فقال قائل منهم: نقول كاهِن، فقيل: ما هو بكاهِن وما هو بحالة الكُهَّان، فقيل: نقول مجنون، فقيل: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجُنون وعرفناه، فما حالته كحالة المجانين، فقيل: نقول هو شاعر، فقيل: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر بأنواعه فما هو بالشعر، فقيل: نقول ساحر، فقيل: لقد رأينا السَّحَرَة فما حالته كحالتهم.

ثم اتفقوا على أن يذيعوا بين الوافدين إلى مكة من العرب أنه ساحر جاء بقول هو سِحْر، يُفَرِّقُ به بين المرء وأبيه؛ وبين المرء وأخيه؛ وبين المرء وزوجه؛ وبين المرء وعشيرته، وصاروا يجلسون بالطرق حين جاء موسم الحج، فلا يمر بهم أحد إلا حَذَّروه إيَّاه وذكروا له أمرَه.

ولقد كان ذلك سبباً في شيوع دعوته صلى الله عليه وسلم وذكر اسمه في بلاد العرب كلها.